القدرات البشرية والعسكرية لقبيلة أيت حديدو
من خلال وثائق الأرشيف الدبلوماسي بنانط

الباحث الحـــو عبيـــبي
دكتور باحث في تاريخ الزمن الراهن
المغرب

تقديم:

تحاول هذه الورقة تسليط الضوء على جانب مهم من المؤهلات البشرية والعسكرية التي توفرت عليها قبيلة أيت حديدو خلال فترة الغزو الفرنسي، والتي شكلت عاملا أساسيا في مقاومة المحتل الفرنسي. وقد جندت المؤسسة العسكرية الفرنسية امكانياتها الاستخباراتية للحصول على معلومات شاملة تهم أيت حديدو، تسمح لها بجرد وإحصاء ما تتوفر عليه من قدرات بشرية وقتالية، بغية رسم خطط عسكرية ناجعة واختيار استراتيجية مناسبة لكسر شوكة القبائل والقضاء على المقاومة المحلية.

وسعيا للإحاطة بهذا الموضوع والإلمام بتفاصيله، اعتمدنا على بعض ما تزخر به رباط الأرشيف الدبلوماسي الفرنسي بنانط، من وثائق مختلفة ما خول لنا الكشف عن الإمكانيات البشرية والعسكرية التي توفرت عليها المنطقة، والتي سببت قلقا كبيرا للمستعمر، فرصدت فرنسا وسائل خاصة غرضها وضع تقديرات وإحصائيات تقريبية للقدرات القتالية ولحجم العتاد الحربي الذي كانت تمتلكه قبيلة أيت حديدو.

ويمكن تأطير هذا الموضوع من خلال الأسئلة التالية:

- ماهي الأهمية التي يكتسيها الأرشيف الفرنسي في كتابة تاريخ منطقة أيت حديدو؟
- ما حجم الإمكانيات والقدرات العسكرية لقبيلة أيت حديدو؟
- وما مصادر التسليح عند هذه القبيلة؟

1- موقع القبيلة وخصوصيته المجالية

تقع منطقة أيت حديدو، في مقدمة السفح الجنوبي للأطلس الكبير الشرقي [1] ، بين خطي عرض 31°20 و32°15 شمال خط الاستواء، وخطي طول 5° و5°45 غرب خط غرينتش، وتمتد على مساحة طويلة تناهز حوالي 12 كيلومتر طولا، و30 كيلومتر عرضا[2]، مما يصعب الإحاطة الشاملة بكل مجالاتها الطبيعية.

وقد سمح هذا الموقع الجغرافي لقبيلة أيت حديدو من تقاسم حدودها الطبيعية مع مجموعة من القبائل الأخرى، ومنها: أيت عبدي نكوسر في الغرب، وأيت سخمان(أيت حمامة) في الشمال، وجنوبا أيت يحيى نكردوس وأيت إزدك وأيت مرغاد في الشرق [3].

بحكم موقعها الجغرافي، يغلب على منطقة أيت حديدو طابع الارتفاع خاصة في الشمال الغربي للبلاد، إذ تشغل البلاد أزيد من ثلثي مساحة المنطقة، ففي الشمال والشمال الغربي للبلاد جبال الأطلس الكبير الشرقي، وفي الجنوب الغربي جبال صاغرو، وتنحدر من الشمال الغربي نحو الجنوب الشرقي ويتراوح ارتفاع القمم الجبلية بين 1700م و3200م[4].

كما تتميز المنطقة بمجاريها المائية الغنية، وعلى رأسها واد "أسيف ملول" ومعناه " الوادي الأبيض" يقع بمجال قبيلة أيت حديدو بجبال الأطلس الكبير الشرقي، ومنه ينطلق آخذا طريقه في اتجاه الجنوب؛ حيث " ينبع أسيف ملول من منطقة أكدال ويتجه صوب الشمال عبر غضون مارا بأفجيج (تاقت وتوكليل وتاقت نحاد منصور)؛ ولكن فجأة يدفعه حاجز هضبة البحيرات نحو الجنوب الغربي ويجبره على حفر مجراه بين إمرال في الشمال وعري نزايموزن[5].

يعتبر وادي أسيف ملول من أهم الأودية بعالية المجال المدروس؛ إذ لايقل أهمية عن باقي الأودية التي احتضنها السفح الجنوبي للمجال؛ بل يمثل الوادي الأكثر خصوصية بالمنطقة بتعبير أوغسطين ليون كيوم[6]. ويتكون حوض أسيف ملول من رافدين مهمين هما: واد تلمي وواد أسيف ملول الموطن الرئيسي لعشائر قبيلة أيت حديدو خاصة فرع أيت إبراهيم، ويملك هذا الوادي أيضا روافد أقل أهمية من حيث الصبيب؛ مثل واد السونتات وواد تين كاكو، وقد وفر أسيف ملول بدوره إمكانية استقرار أيت حديدو بالشمال الغربي للأطلس الكبير الشرقي موزعين على شكل فرقتين بين عالية الوادي وسافلته؛ حيث استقر فرع أيت إبراهيم بعالية المجال، في حين اختار فرع أيت إيعزى الاستقرار بالسهل؛ أي أسفل المجرى المائي[7].

ومن المحتمل أن تقف دواعي معينة وراء هذا التوزيع الواضح لفروع قبيلة أيت حديدو؛ ولكن مهما كانت هذه الدواعي والأسباب؛ فإن هذا التوزيع الجغرافي تتحكم فيه دون ريب اعتبارات عديدة مرتبطة بالظروف التاريخية التي عرفها مجال استقرارها بأسيف ملول في القرن السابع عشر الميلادي، والتي لها ارتباط وثيق بحفظ الأمن بالدرجة الأولى وتجنب الدخول في المناوشات التي من شأنها أن تؤثر سلبا على الخريطة الديمغرافية بالمنطقة[8].

خريطة رقم 1: الإطار الجغرافي لقبيلة أيت حديدو والقبائل المحاذية ضمن خريطة المغرب.

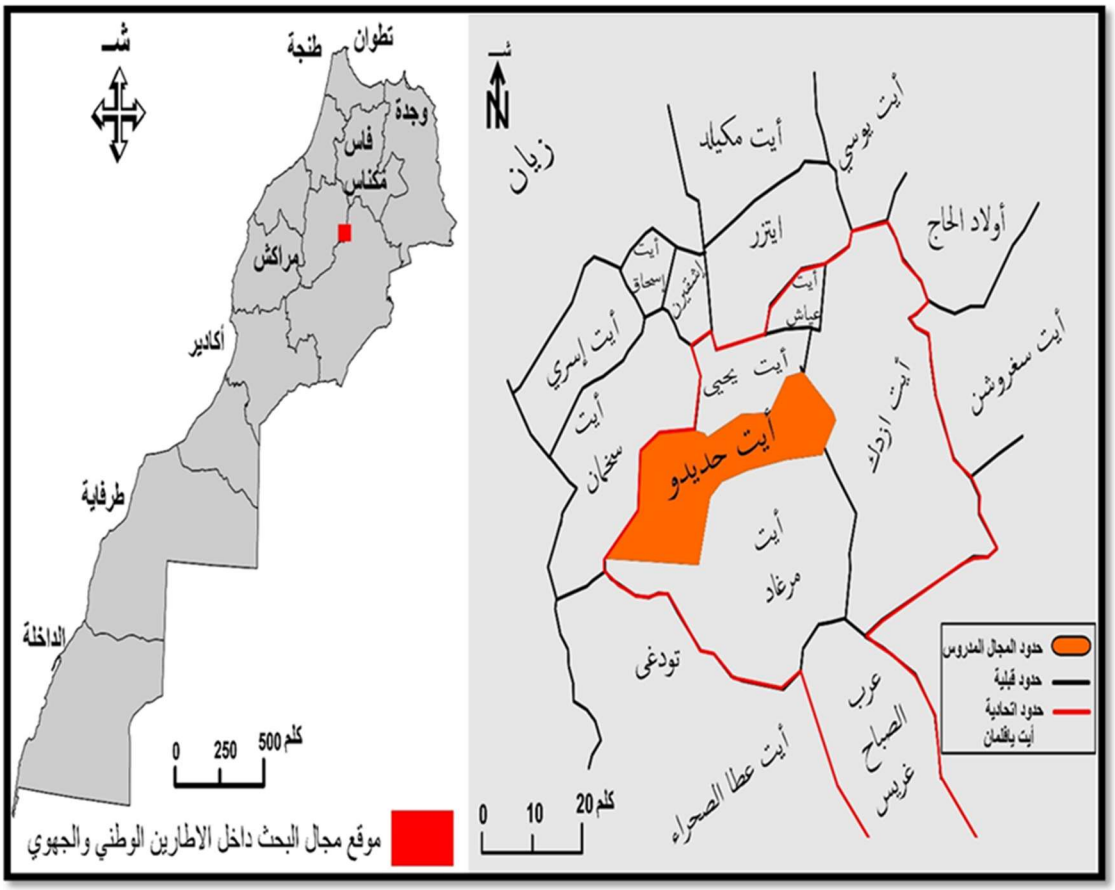

إنجاز الباحث اعتمادا على:

- Archives Diplomatique de Nantes, **Etude Droit Coutumier des Ait Haddidou-Ait yazza de l'assif Melloul1935**, carton 1MA285/72, p.9

2- نظرة تاريخية

ألزمت حماية المصالح المشتركة التحالفات القبلية بالجنوب الشرقي المغربي بالبحث عن قوة غالبة لتدبير المجال على المستوى الأمني [9]. بيد أن هذه الوسيلة، كانت لها تداعيات، لاسيما وأننا نتحدث عن منطقة كانت معروفة بالصراعات[10]، حول نقط الماء، أو بخصوص مجالات الانتجاع. ولتهذيب، وكبح جماح هذه التنظيمات، كان المخزن حينذاك ينهج سياسة ردعية وزجرية في الوقت نفسه، في إطار ما سمي بالحركات، بغية ضبطها وكسر شوكتها والتحكم فيها، وبالتالي إخضاعها لسلطة المركز وسياسته.[11]

ونتيجة لذلك، شكلت قبيلة أيت حديدو مع أيت يحيى وأيت إزدك وأيت مرغاد قوة في إطار اتحادية" أيت يفلمان". وما زاد التمكين لعصبتهم [12]، توسعهم مجاليا بإيعاز من المخزن، عن طريق استمالة قبائل أخرى، بالرغم من أن بعض القرائن تفيد كون هذه الاتحادية لم تصل لذروة صلابتها ومتانتها إلا مع الربع الأول من القرن 17م، خاصة خلال نهاية المواجهة التي كانت قائمة بين الزاوية الدلائية والسمللاليين والعلويين، سنة 1630م، مخلفة تقسيم الأطلس الكبير الشرقي بين الأطراف الثلاثة[13].

اكتسبت قبيلة أيت حديدو مكانتها بفعل بعض الخصوصيات التي ميزتها، منها طبيعة المكون البشري والموقع الجغرافي، فكانت لها موارد عيشها الذاتية وربطت علاقات طبيعية مع القبائل المجاورة، وقد ساهمت الدراسات والتقارير الفرنسية في التعريف بهذا المجال البشري والجغرافي وتعرية واقعه وخصوصياته [14].

بصفة عامة يتكون هذا المجتمع من عشائر ذات أصول مختلفة، والتي تبدو متحدة في إمضغاس في شكل فيدرالي، غير أنه يمكننا أن نميز بين أيت حديدو نميدول وأيت حديدو نزوليت، الفرع الأول يشكل قبيلة متجانسة ويستقر على الضفاف العليا لواد زيز، إسلاتن، أسيف ملول، أمضغوس، وإمضغاس، أما الفرع الثاني فقد استقر بتعلالين (قرب الريش) بعد فقدانهم لحظوة المولى إسماعيل.

3- أهمية الأرشيف الفرنسي في كتابة تاريخ منطقة أيت حديدو

لا شك أن للأرشيف – باعتباره كل ما يتشكل من وثائق مكتوبة كانت أو مسموعة أو مرئية من خلال العمل اليومي للأفراد والجماعات داخل مختلف المؤسسات والإدارات — أهمية بالغة في كتابة تاريخ الأمم والشعوب، ذلك أن الوثائق الأرشيفية في البداية تكون لها قيمة علمية وإدارية، لكن بعد فترة من الزمن تتغير تلك القيمة لتصبح ذات قيمة تاريخية للمصالح المنتجة لها ولعامة الناس والدولة بصفة عامة؛ بحيث يتم استثمار تلك الذخائر في إنجاز البحوث والدراسات في كل مناحي الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية للمجتمع برمته[15]، وفي هذا السياق يقول محمد بوسلام: "لا تموت الوثيقة بمجرد الانتهاء من استعمالها الإداري؛ بل إن فائدتها تستمر على مدى الحياة، وبذلك تنتقل من القيمة الإدارية إلى القيمة العلمية. أي أن أهمية الأرشيف الإدارية لا تنفصل عن أهميته العلمية. فيما يقدمه للعلم وللتاريخ من إمكانيات مهمة للاشتغال؛ إذ منه تستقى المادة الأولية الضرورية لمعرفة الأحداث والأمكنة والأعلام، وبالاعتماد عليه تدرس الأحوال الاقتصادية والسياسية وتعرف العقليات والعادات والتقاليد ومختلف مظاهر الحياة اليومية؛ من أكل وسكن وفراش ولباس وفنون وآداب وطرب..."[16].

وبحكم ما يزخر به الأرشيف الدبلوماسي من الوثائق التي تهم مختلف المجالات (سياسية واقتصادية واجتماعية، وثقافية...)؛ فإنه يمثل مصدرا غنيا ليس للمؤرخ فحسب؛ بل هو كنز لا يفنى كذلك بالنسبة للباحثين في العلوم المساعدة للتاريخ من ديمغرافيا تاريخية وسوسيولوجيا وأنثروبولوجيا وغيرها[17]. ومن هنا تقاطعت أراء ومواقف الباحثين في تاريخ المغرب المعاصر، واتفقوا على ضرورة استثمار الإرث المكتوب الذي خلفته الفترة الاستعمارية، إذ لا مناص من الإقرار بأن هناك كما هائلا من المؤلفات والدراسات والتقارير التي لا حصر لها، قد وضعت من طرف جيش من الباحثين والعسكريين همت مختلف جوانب الوضع في مغرب أواخر القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين[18].

ويعد مركز الأرشيف الدبلوماسي بنانط التابع لوزارة الخارجية الفرنسية، من بين أهم المراكز الأرشيفية التي تختزن كميات هائلة من الوثائق الخاصة بالمغرب في عهد الحماية الفرنسية، لذلك يبقى هذا النوع من الوثائق من أغنى الأرشيفات الخاصة بتاريخ المغرب في عهد الحماية[19]. وقد تطلبت عملية ترتيب هذه الأرصدة الوثائقية المختلفة، التي يغلب عليها الطابع الدبلوماسي ستة عشر عاما من العمل المستمر؛ ابتداء من سنة 1970-1971 تاريخ وضع هذه المستندات في مركز نانط إلى سنة 1987، وهي السنة التي فتحت فيها أبواب المركز في وجه الباحثين. وجدير بالقول أن أهمية هذه الأرصدة الوثائقية لا تكمن فقط في كثرة أعدادها وضخامتها؛ بل تكمن كذلك في تنوعها تبعا لتنوع واختلاف المؤسسات الصادرة عنها ونوع القضايا والوقائع التي عالجتها[20].

وبما أن الأرصدة الوثائقية المحفوظة بمركز نانط تم إنتاجها وجمعها في كل مناطق وجهات المغرب، من قبل مختلف المصالح والأجهزة التي قامت عليها الحماية الفرنسية[21]، فإن قبيلة أيت حديدو كان لها نصيبها أيضا من هذا المخزون الوثائقي. فما هي حدود وآفاق إسهام هذا الأرشيف في كتابة تاريخ منطقة أيت حديدو خاصة في مرحلة الغزو الفرنسي للمنطقة؟ وما ماذا دور هذه الأرصدة الوثائقية في تناول مسألة الأسلحة وأنواعها؟

إن الحديث عن تاريخ قبيلة أيت حديدو من خلال الأرشيفات الديبلوماسية المحفوظة بمدينة نانط الفرنسية، يدفع في واقع الأمر إلى ضرورة الإشارة إلى أهمية الوثائق الدبلوماسية الفرنسية في كتابة تاريخ الحماية بالمغرب 1912-1956، وتاريخ مجموعة من القبائل على وجه الخصوص، لأن هذا المركز يعتبر بامتياز مؤسسة حافظة مصينة لكل الوثائق التي لا يمكن الاستغناء عليها في كتابة تاريخ المغرب المعاصر على وجه الخصوص[22].

وتكمن أهمية هذا الأرشيف في كتابة تاريخ المغرب المعاصر، كونه يضم جملة من الوثائق التي ستساهم لا محالة في إعادة كتابة تاريخ المغرب العميق بصفة عامة، وتاريخ أيت حديدو بصفة خاصة، وذلك بالنظر للمعلومات تاريخية قيمة التي تحتويها عليها. إلا أن على الباحث المتعامل مع هذه الوثائق التسلح بمناهج غير المناهج الموثق القائمة على القراءة السريعة والسطحية، إذ أن قراءة الباحث في التاريخ هي تصفح متأني ما يستوجب عليه الوقوف عند بنية النص، وتحديد الخطاب الموجه من طرف المؤلف، والمصطلحات المستعملة والأفكار والفرضية المتضمنة في المتن وطريقة تقديمها والدفاع عنها وتاريخ كتابتها. فعمل الباحث في التاريخ يتجاوز عمل الإخباري أو الموثق، إذ عليه أن يقوم بقراءة مختلفة يكون الهدف من ورائها هو استقراء المادة الوثائقية ومساءلتها ومحاولة تحديد موضوعها والإشكالات التي تطرحها[23]، ومدى انسجام مضامينها، ثم تحديد مدى التزام صاحبها بأدبيات الإنتاج المعرفي أو تقديم الفرضية أو نقد الأبحاث العلمية.

فربائد ووثائق مركز الأرشيف الدبلوماسي بنانط التي تخص منطقة أيت حديدو، تضم معطيات مهمة موزعة في مجموعة من المحافظ، وهي في مجملها مراسلات مبعوثة من القيادة العسكرية بتافيلالت ونواحيها، كما أنها مرسلة إلى الضباط، وضباط الصف في القيادة العليا وإلى المصالح المركزية في الإقامة العامة[24]، تحتوي على ملفات خاصة بالجانب العسكري، وتقارير الاستخبارات السياسية أنجزت حول زعماء المقاومة والعلميات الحربية المنجزة لإخضاعهم[25]، وكذا ملفات تهم مختلف مناحي الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية لمنطقة أيت حديدو[26].

4- القدرات البشرية والعسكرية لقبيلة أيت حديدو

لا نروم في هذا المقام تقديم دراسة جامعة مانعة للإمكانيات العسكرية لقبيلة أيت حديدو، بقدر ما نرنو إلى فتح زاوية نسلط فيها الضوء على القدرة القتالية التي توفرت عليها هذه القبيلة، وفي هذا الصدد يقول ضابط لوكومت "Lecomte": "تستخلص الإمكانيات العسكرية لأيت حديدو بسهولة من خلال ما قلنا عنهم وعن بلادهم، وتعتبر جبالهم العالية في الفصل الشتاء القاسية أحسن حليف لهم، وهم مدينون لها باستقلالهم تجاه المخزن، فبفضلها تجنبت بلادهم قبضتنا، وفي حين انتشر تأثيرنا تدريجيا على باقي المغرب"[27]. فالمقاومة المحلية لا تتوفر على جيش نظامي بمعنى الكلمة، بل على مجموعات من المتطوعين جاؤوا من مختلف فروع قبيلة أيت حديدو، ويمتازون بروح الانضباط التي تميزهم عن جيرانهم"[28].

كما قدم الضابط لوكومت الوضع الديمغرافي والقتالي للقبيلة، وجاءت معلوماته عبارة عن تقديرات وإحصائيات بخصوص عدد العائلات الموجودة داخل كل أودية المنطقة، وقد تفطن لمسألة التفاوت الحاصل بين عدد سكان القبيلة، وما بحوزتهم من البنادق، مميزا في نفس الوقت بين أنواع أسلحتهم النارية.

وهكذا، شددت تقديرات الاستخبارات العسكرية الفرنسية، على إدراج أيت حديدو ضمن القبائل التي تتوفر على قدرات بشرية وعسكرية لا يستهان به، وفيما يلي جدول يوضح تعداد القدرات البشرية والقتالية لقبيلة أيت حديدو[29]:

جدول رقم 1: مجموع القدرات البشرية والعسكرية حسب الأودية منطقة أيت حديدو[30].

	عدد العائلات	عدد البنادق	
		ذات طلقات سريعة	ذات أعيرة مختلفة
أعالي أسيف ملول	1075	273	663
أسيف ملول	185	68	109
	645	200	340
مجموع حوض أسيف ملول	1905	541	1112
أسيف أغدو	360	107	220
حوض زيز	808	88	310
أسيف نمضغوس	375	103	210
أسيف إمضغاس	640	196	350
المجموع العام	4088	1035	2202

وعبر ما ورد بالجدول أعلاه من معطيات وإحصائيات سجلنا ما يلي:

تصدرت منطقة عالية أسيف ملول المجموعة الخاصة بالمنطقة، حيث بلغ حجم العتاد العسكري بالمنطقة حوالي 273 بندقية ذات الطلقات السريعة، وما يناهز 663 بندقية من أعيرة مختلفة، بينما تليها منطقة أسيف ملول السفلى التي توفرت على حوالي 540 بندقية في مجموع قدرتها القتالية، ثم حوالي 177 بندقية بالنسبة لمنطقة أسيف ملول (68 ذات طلقات سريعة/ 109 من أعيرة مختلفة).

وذلك ما يمكن تفسيره بعامل الكثافة السكانية وخصوصيات الموقع الجغرافي لكل منطقة، حيث بلغ عدد عائلات عالية منطقة أسيف ملول حوالي 1075 عائلة، وحوالي 654 عائلة و185 عائلة بالنسبة لمنطقة أسيف ملول السفلى الوسطى على التوالي.

أما بالنسبة للتجمعات السكانية، فأسيف أغدو وحوض زيز وأسيف نمضغوس وأسيف إمضغاس، فقد تصدرت هذه الأخيرة المجموعة بما يقدر ب 564 بندقية في مجموع القدرة العسكرية للمنطقة، بينما توفرت منطقة أسيف نمضغوس على أقل حجم من العدة العسكرية بالنسبة لتجمعات الأخرى (103 بندقية ذات إطلاق سريع/ 210 من أعيرة مختلفة)؛ بينما يلاحظ من خلال المقارنة بين المعدل الإجمالي للقدرة القتالية والبشرية على مستوى المجموعتين، الفرق الشاسع بين تجمعات أسيف ملول ونظيرتها في أسيف أغدو، حيث يقدر المجموع العام لحجم القدرة البشرية والعسكرية بالنسبة للأول بحوالي 1905 على مستوى عدد العائلات، وما يناهز 1653 بندقية(بارودة) من القدرة العسكرية؛ بينما توفرت المجموعة الثانية على ما يناهز 494 بندقية و2183 عائلة، (المعدل الإجمالي على مستوى المجموعتين: 4088 عائلة/ 3037 بندقية).

ويلاحظ أن تطور حجم قدرات القبيلة البشرية والحربية، ارتبط بمدى جدية التهديد الخارجي وشدة الضغط العسكري والسياسي الذي مارسته القوات الفرنسية على القبائل المجاورة لمنطقة أيت حديدو[31]، إن هذا التحديد يهدف إلى إبراز دور المقوم البشري والعسكري في بلورة بنيات القبلية لأيت حديدو، من خلال تبيان ميكانيزمات وأليات عمل القبيلة الذي يقتضي أن تكوين كل القبيلة وحدة عسكرية، بمعنى أن كل أفرادها مقاتلين(أو محاربين) مستعدين لمواجهة أي اعتداء الخارجي، وهو نفس الأمر الذي ينطبق على منطقة أيت حديدو نظرا لتاريخها العريق والطويل في المعارك ضد القبائل المجاورة وضد المخزن المركزي.

5- مصادر الأسلحة وأنواعها

حرص الشخص الحديدوي، في هذه المنطقة كما في غيرها من المناطق المغربية، على تسليح نفسه مهما كلفه ذلك من ثمن، بحيث أن جل البنادق التي امتلكوها كانت من بقايا المعارك القبلية أو قطعا صغيرة من الأسلحة الحديثة مما استطاعوا أن يشتروه، فالمقاومون لم يتعرفوا على البنادق ذات الطلقات السريعة إلا بالاحتكاك بالقبائل المجاورة كأيت إزدك وأيت سخمان...، وفي هذا الاتجاه:" كانت فرنسا تصدر إلى المغرب بنادق من النوع المعروف عند العامة بـــ ساسبو "Chassepot " والذي يعود صنعه إلى حرب السبعين عاما المعروفة، وكانت البلاد تتلقى بنادق المارتيني " Martini" من إيطاليا، وبنادق الرومنكطون" Remington" من أنجلتر وبنادق موسكوتون "Mousquetons " العائد في صنعها إلى عام 1892، والتي بيعت في أوساط أيت حديدو بثمن فرنك، وبأقل من ذلك فيما بعد، غير أن البنادق المستخدمة للحجارة، والمشهورة محليا باسم بوشفر والمخلفة للدخان بعد الضغط على الزناد، كانت أكثر شيوعا في أوساط القبائل، ولم يكن ثمن هذا الصنف يتجاوز 200 فرنك وقتئذ"[32].

كما ظهرت بنادق أخرى من نوع "مارتيني" ونوع وينشستر" Winchester "، التي كانت تعبأ بنوع خاص من الرصاص، مثل البندقية الفرنسية" Gras" نوع 1874 من الحجم الكبير وتسمى بالحرابية، وبندقية من نوع 1886 ثم بندقية أخرى تسمى شاسبو نوع 1867، وبندقية نوع 07,15 ونوع 92، وتعتبر هذه البنادق من البنادق القليلة في الأسواق، نظرا لكون أثمنتها مرتفعة تصل إلى 2000 فرنك. كما أنها كانت تعد من البنادق المفضلة لدى المقاومة، لأن لها عيارات كبيرة الحجم، وإن كانت بعض القبائل تفضل أيضا بنادق أخرى كما هو الشأن بالنسبة للبندقية نوع 1868، وإن كانت عياراتها صغيرة[33].

ويضيف فريش" Frish" إلى جانب هذه البنادق المذكورة، كان بحوزة المقاومة المغربية نواع أخر من البنادق، ويشير هنا إلى بندقية موزير" Mauser" الألمانية الصنع، كما ثبت في مصادر أخرى، استعمال المقاومة لبنادق كانت في الأصل تابعة لجيش السلطان مولاي عبد الحفيظ، حينما كان يدعم المقاومة ويمدها بالسلاح، مثل بندقية من نوع ويتيرلي" Wetterli"، وبندقية من نوع سبنسر "Spencer "، ويضيف الضابط لوكومت "Lecomte " أن المقاومة كانت تتوفر على بندقية رشاشة من نوع 1915 ". وحسب الكولونيل فابر"Fabre"، لا يستعملونها نهائيا، لعدة أسباب من بينها نقص كبير في الذخيرة لدى المقاومة، وأمام هذا النقص الحاصل في الذخيرة، كان المقاوم يتزود فقط بنحو 25 إلى 50 رصاصة، وفي بعض الأحيان أو حالات استثنائية، يستطيع أن يحصل على 100 رصاصة، ثم أيضا صعوبة تثبيتها على ركائزها[34].

وإذا كانت المقاومة المسلحة قد لجأت إلى امتلاك الأسلحة العصرية، فهذا لا يعني أنها تخلت عن استعمال البنادق العتيقة، دليلنا في ذلك أن البنادق التي جردت منها عناصر المقاومة من طرف الاحتلال، كانت من طراز بوشفر[35].

وقد كان مقاتلو أيت حديدو يعززون مخزونهم من السلاح والذخيرة بما يستولون عليه من عتاد خلال المواجهات المتعددة مع فرق القوات الفرنسية، وذلك من خلال نصب الكمائن وقيامهم بعمليات السطو لنزع هذه الأسلحة من الفيالق الفرنسية داخل التكنات العسكرية، بحيث يقول بول بيلو"Paul Belot" في هذا الصدد: "هؤلاء المردة المغاربة كانوا يتسللون تقريبا كل ليلة إلى داخل المعسكر الفرنسي، فيسرقون منه البنادق بعد قتل الحراس، كانوا يتسللون إلى داخل المعسكر عراة، بعد أن يطلوا أجسامهم بشحم ابن

أوى، الذي لرائحته خاصية تخذير الكلاب، ولم يكن للواحد منهم سلاح سوى خنجر حاد، ولا يحدثون بحركتهم أكثر مما تحدثه عادة ورقة يابسة في الريح، فلا أحد منا يراهم، ولا أحد يسمعهم، وينجحون دائما تقريبا في أعمالهم"[36].

كما انتقل عدد البنادق من صنف 1871 و1881 التي سبقت للسلطات الاحتلالية أن وزعتها على أفراد الفزعات، إلى أيدي الأهالي بيعا وإكراها وتفاهما، على الرغم من قيام الفرنسيين بتجريد القبائل المستسلمة من كل أشكال السلاح، ومتابعة القبائل التي أخفت سلاحها بل وتغريمها بتكاليف ثقيلة [37].

وتجدر الإشارة، أن سكان منطقة أيت حديدو اعتادوا على حركية التنقل بين مجالات قبلية رصدا للمستجدات وتجسيدا للترابط الاجتماعي، فقد مكنت هذه الحركية من الاطلاع على مستجدات أحداث المقاومة التي شهدتها مناطق الأطلس المتوسط، وما تكبدته جيوش الاحتلال في معارك الريف، وكذا في مجالهم وخاصة في معركة أيت يعقوب سنة 1929،وأيضا بتافيلالت، حيث كانت هذه المحطات وغيرها فرصة مكنت أيت حديدو من التزود بكميات كبيرة من الأسلحة والذخيرة، انضافت إلى رصيدها الموروث عن فترات سابقة، وخاصة في الوقت الذي كانت فيه الدول الطامعة باحتلال المغرب مُروجا كبيرا للسلاح في الأوساط القبلية بهدف خلق متاعب للمخزن المركزي، بيد أن الأقدار شاءت أن تصوب نيران هذه الأسلحة لمحاربة المحتلين[38].

ويتبين لنا أن مشكل الحصول على قطع السلاح اللازمة من طرف المقاومين لمواجهة التوغل الاستعماري لم يكن عائقا يصعب تجاوزه، فالقرائن التاريخية تؤكد وجود حيل واستراتيجيات للتمكن والتزود بهذه الوسيلة التي كانت تصنع فارقا في ساحة المعارك، حتى وإن كانت بسيطة وتقليدية، بفعل امتلاك التكتيكات الحربية وكذلك الشجاعة والإيمان بضرورة الدفاع عن المصير المشترك للقبائل، ومن بين الطرق التي كانت تستخدم للحصول على البنادق والرصاص وغيره، مسألة المتاجرة بالسلاح بين التنظيمات المحاربة بشكل سري، عن طريق التهريب الذي كان يتم بدكاء وفطنة الشيء الذي كان يجعل اقتناء السلاح سهلا ويسيرا لكل راغب في ذلك، وفي نفس الاتجاه يشير القبطان نومدودو "Capitaine Nomdedeu" لكيفية حصول القبائل على الأسلحة:"...وبسرعة انتظمت عملية تهريب الأسلحة، وتم إرسال البنادق نحو مسمرير وإمضغاس، وأشرف أيت عطا على هذا النوع من التجارة، وكانت البنادق تحزم داخل جلود الماعز بعد تجفيفها تحت أشعة الشمس، وتصدر عن طريق وسطاء إلى أزيلال ووايزغت، وتحمل بواسطة شاحنات على شكل رزم عادية نحو مراكش. فقد كان هؤلاء يشترون البنادق دفعة واحدة من أجل بيعها عن طريق الدين مع العلم أنه ليس هناك أي أمل لاسترجاع مستحقاتهم من الأموال، مع استحالة تقديم شكوى للقضاء، فأحد المهربين ويدعى زايد أوحماد من قطاع الطرق سابقا استطاع تسديد ديونه تفاديا للإفلاس الكامل، وعاد بعد ذلك إلى مهنته كمحارب"[39].

ويعد السلاح الأبيض، أكثر الأسلحة المتوفرة لدى المقاومة، والمستعملة في غالب الأحيان أثناء حدوث المواجهة المباشرة جسدا لجسد، التي يكون فيها المقاتل وجها لوجه مع الخصم، أو تكون الأطراف المتحاربة على مسافة متقاربة. ويضم السلاح مجموعة من الأصناف، إذ نجد الخناجر والحراب والسكاكين والسبولات والقادومات والمناجل والمادرات، إضافة إلى استعمال الحجارة كسلاح يلجأ إليها مقاتلي المقاومة الحديدوية في حدوث المواجهات في مجال طبوغرافي تتخلله منحدرات، من خلال رمي الخصم الموجود في أسفل المنحدرات بأحجار ضخمة. كما كانت المقاومة أيضا تستعمل الهراوات في المعارك، وقد اشتهرت منطقة أيت حديدو بذلك باستعمال هذا النوع من السلاح[40].

كما تجدر الإشارة في هذا السياق، أن قبيلة أيت حديدو قامت بتصنيع البارود، وذلك لأن نمط عيشهم الذي كان قد مر من حياة الترحال إلى الاستقرار، مما أوجد مناخا ملائما لمزوالة هذا النوع من النشاط الصناعي[41]، واشتهر ثلاثة أشخاص من أيت حديدو بصناعة البارود والرصاص[42].

على سبيل الاستنتاج:

يتضح من خلال ما سبق، أن الأرشيف الفرنسي الدبلوماسي بنانط يكتسي أهمية كبيرة كمصدر لا غنى عنه لدراسة تاريخ منطقة أيت حديدو في مرحلة حاسمة من تاريخ البلاد، مما يستوجب العمل على استغلاله بالشكل المطلوب لتسليط الضوء على شتى جوانب هذا المجال وتاريخه في فترة حساسة وحاسمة من تاريخ المغرب المعاصر. وسعيا منا للكشف عن كثير من الخبايا ومناطق الظل في تاريخ مقاومة القبائل المغربية والتعريف بما بدلته من تضحيات في مواجهة المستعمر، تناولنا بمقالنا مسألة القدرات البشرية والعسكرية عند واحدة من هذه القبائل وركزنا اهتمامنا على قبيلة أيت حديدو، التي شكلت بصمودها وشراستها امتحانا عسيرا للقوى الفرنسية والقوى الأخرى التي حاربت تحت إمرتها، وهذه الخاصية المميزة لمقاومة لمنطقة أيت حديدو عن غيرها من المقاومات بالمغرب، أهلتها للتصدي ولفترة ليست بالقصيرة للقوات الفرنسية، ما جعلها تستحوذ على اهتمام مصالحها للكشف عن خباياها وجندت لهذه الغاية جيشا من الجواسيس وضباط الشؤون الأهلية والأعوان وغيرهم، وذلك لجمع شتى أنواع المعلومات الإثنية والعسكرية والسياسية والاقتصادية وكل ما له صلة بمجال أيت حديدو قصد استغلالها في وضع المخططات العسكرية تسهل عليهم عملية اختراقه والتحكم فيه.

الهوامش:

[1] حسان عوض، الجبال المغربية مقدمة في ملامحها الجغرافية، مطبعة دار الرشاد، الدار البيضاء، 1971، ص.22.

[2] أحمد العلمي، " مقاومة أيت حديدو للاستعمار الفرنسي من خلال بعض الوثائق الفرنسية"، مقال ضمن ندوة تاريخ المقاومة المسلحة والحركة الوطنية في المنطقة الوسطى 19181955، منشورات المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، الطبعة الثانية، 2011، ص. 95.

[3] Archives Diplomatique de Nantes, La question Ait Haddidou, carton 1MA285/43, p.10.

[4] Archives Diplomatique de Nantes, Assif Mellouloued Ahansal : recherches d'itinéraires de pénétration à travers Le Grand Atlas 1932, carton 1MA 285/44, p.11.

[5] عبد الله أزواوي، التاريخ الاجتماعي والاقتصادي والسياسي لقبائل أيت يف المان: منذ التأسيس إلى أواخر القرن 19م، أطروحة مرقونة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية أكادير، جامعة ابن زهر، الموسم الجامعي 20212022، ص.41.

[6] عبد الله أزواوي، التاريخ الاجتماعي والاقتصادي والسياسي لقبائل أيت يف المان، مرجع سابق، ص.42.

[7] نفسه، ن.ص.

[8] نفسه، ن.ص.

[9] Larbi Mezzine, Le Tafilalt, contribution à l'Histoire du Maroc aux XVII et XVIII siècles, publications de la faculte des lettre et sciences humaines, Rabat, 1987, p.279.

[10] Andre Bertrand, Tribus berbères du haut Atlas, Lausanne, Editavilo, 1977, p.20.

[11] مولاي التقي العلوي، أصول المغاربة، إعداد وإخراج علال ركوك وحفيظة الهاني، منشورات المعهد الجامعي للبحث العلمي، جامعة محمد الخامس الرباط، الطبعة الأولى، 2016، ص.81.

[12] Mohamed Lmoubariki, La résistance du sud est Marocain à la pénétration Française 19081934, édité par le hautcommissariat aux anciens Résistants et Anciens membre de l'armée de libération, 2020, p.82.

[13] عبد الله تزلي، الاحتلال الفرنسي لمنطقة آيت أزدك وآثاره العامة 19081930، منشورات المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، الطبعة الأولى، 2017، ص. 67.

[14] Jean Robichez, Le Maroc central, Arthaud, Paris 1945, p.120.

[15] محمد المسكاوي، قبائل آيت عطا من خلال وثائق الأرشيف الديبلوماسي بنانت الفرنسية 19131956، منشورات المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، الطبعة الأولى، 2022، ص.36.

[16] محمد بوسلام، " الأرشيف في خدمة البحث العلمي والتنمية"، ضمن كتاب:" الأرشيف وكتابة تاريخ المغرب"، منشورات المجلس البلدي لصفرو، العدد 10، 19992000، ص. 23.

[17] محمد المسكاوي، قبائل آيت عطا، مرجع سابق، ص.36.

[18] الحسن بودرقا وعبد القادر أيت الغازي، "الأطلس المركزي زمن الحماية من خلال وثائق الأرشيف الدبلوماسي الفرنسي بنانط رصد أولي"، ضمن كتاب الجبال المغربية: التاريخ، التراث ورهانات التنمية، تنسيق علي بنطالب، عزيز بن الطالب، وصباح علاش، وعبد القادر أيت الغازي، منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، الرباط، الطبعة الأولى، 2022، ص. 135.

[19] بوشتى بوعسرية، "مركز الأرشيف الديبلوماسي في مدينة نانط في فرنسا"، ضمن كتاب:" وثائق عهد الحماية رصد أولي"، تنسيق إبراهيم بوطالب، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، مطبعة فضالة، الرباط، الطبعة الأولى، 1996، ص. 35.

[20] نفسه، ص.59.

[21] نفســـــه، ص.64.

[22] لحسن أوري،" تازة وباديتها في الأرشيف الحماية الفرنسية بمركز الأرشيف الديبلوماسي بمدينة نانط"، ضمن كتاب: "تازة وباديتها من خلال الأرشيفات الأجنبية والتراث الوثائقي المحلي"، منشورات مختبر البحث في العلاقات الثقافية المغربية المتوسطية، كلية متعددة التخصصات تازة، جامعة سيدي محمد بن عبد الله، الطبعة الأولى، 2014، ص.291.

[23] عبد القادر بوراس، "آفاق وحدود استثمار تقارير ضباط الشؤون الأهلية في كتابة التاريخ"، ضمن كتاب: "وثائق عهد الحماية رصد أولي"، تنسيق إبراهيم بوطالب، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، مطبعة فضالة، الرباط، الطبعة الأولى، 1996، ص. 92.

[24] محمد الوردي، قبيلة البرانس في مواجهة الاحتلال العسكري الفرنسي دور الزعامات في قيادة المقاومة 1912 1926، منشورات المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، الطبعة الأولى،2017، ص.15.

[25] نفسه، ص.16 .

[27] Archives Diplomatique de Nantes, La question Ait Haddidou 1929, carton 1MA285/57/47, p.95.
[28] Ibid,p.96.
[29] Ibidem, p.100.
[30] Ibidem, p. 101.
[31] Archives Diplomatique de Nantes, Notice sur les Ait Haddidou 1929, carton 1MA285/57/48, p. 45.

[32] عبد الله تزلي، الاحتلال الفرنسي لمنطقة آيت إزدك وآثاره العامة 1908 1930، منشورات المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، الطبعة الأولى، 2017، ص. 372.

[33] لحسن الغزواني، الاحتلال العسكري الفرنسي دراسة في التكتيكات الحربية واللوجستيك 19071934، أطروحة مرقونة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ظهر المهراز، جامعة سيدي محمد بن عبد الله فاس، السنة الجامعية 2014 2015، ص.227.

[34] Colonel Fabre , La tactique au Maroc, Charles Lavauzelle, 1931,p.61.

[35] لحسن الغزواني، " صناعة السلاح بالمناطق الجبلية إبان فترة الحماية قبائل زيان والجهة الشرقية نموذجا"، ضمن كتاب: "الحرف والفنون في تاريخ المغرب مقاربات ومقارنات"، منشورات مختبر البحث في العلاقات الثقافية المغربية المتوسطية، كلية المتعددة التخصصات تازة، جامعة سيدي محمد بن عبد الله، الطبعة الأولى، 2017، ص. 171.

[36] Paul Belot, trente ans de Baroud, B.Arthaud, 1945, p.120.

[37] عبد الله تزلي، الاحتلال الفرنسي لمنطقة آيت إزدك، مرجع سابق، ص.372.

[38] عبد الله تزلي، الاحتلال الفرنسي لمنطقة آيت إزدك، مرجع سابق، ص. 373.

[39] Archives Diplomatique de Nantes, Annexe d'Assoul,1953, capitaine Nomdedeu, 1MA/285/23, p.82.
[40] Ibid, p.83.

[41] حسن الغزواني، " صناعة السلاح بالمناطق الجبلية إبان فترة الحماية قبائل زيان والجهة الشرقية نموذجا"، مرجع سابق، ص. 173.

[42] Raymond Peyronnet, Tadla, Pays Zain, Moyen Atlas, Imprimerie Algérienne, Alger, 1955, p.311.